إرسال المشركين وفداً إلى الحبشة

ولكي نقف على التفاصيل المتعلقة بالموضوع نحبذ أن ننقل الروايات الوافية التي أوردت المعلومات الوافرة عن الوفد الذي أرسلته قريش ليقوم بمهمة صعبة للغاية وهي استرداد المهاجرين إلى مكة، وعن الصحابة رضي الله تعالى عنهم، وعن النجاشي، وعن المناظرات والمناقشات التي دارت في أرض الحبشة، وتلك الروايات هي أحسن الروايات سنداً ومتناً والتي وردت في الموضوع ونبدأ برواية عبدالله بن مسعود: «حدثنا حسن بن موسى قال: سمعت خديجاً أخا زهير بن معاوية عن أبي إسحاق عن عبدالله بن عتبة عن ابن مسعود قال: بعثنا رسول الله ﷺ إلى النجاشي ونحن نحو من ثمانين رجلاً، فيهم عبدالله بن مسعود، وجعفر، وعبدالله بن عرفطة وعثمان بن مظعون، وأبو موسى[1]. فأتوا للنجاشي، وبعثت قريش عمرو بن العاص، وعمارة بن الوليد، بهدية، فلما دخلا على النجاشي سجدا له ثم ابتدراه عن يمينه وعن شماله ثم قالا له: إن نفراً من بني عمنا نزلوا أرضك، ورغبوا عنا وعن ملتنا، قال: فأين هم؟ قالوا: هم في أرضك فابعث إليهم، فبعث إليهم فقال جعفر: أنا خطيبكم اليوم فاتبعوه، فسلم ولم يسجد، فقالوا له: ما لك لا تسجد للملك؟ قال: إنّا لا نسجد إلا لله عز وجل، قال: وما ذاك؟ قال: إن الله عز وجل بعث إلينا رسوله ﷺ، وأمرنا أن لا نسجد لأحد إلا لله

(١) أبو موسى الأشعري لم يهاجر من مكة مع من هاجر فيها. وإنما هاجر ومعه أكثر من خمسين من الأشعريين من اليمن قاصدين المدينة فألقتهم سفينتهم إلى النجاشي. راجع المبحث السابق تحت عنوان «من هاجر إلى الحبشة».

عز وجل، وأمرنا بالصلاة والزكاة، قال عمرو بن العاص: فإنهم يخالفونك في عيسى بن مريم، قال: ما تقولون في عيسى بن مريم وأمه؟!! قالوا: نقول كما قال الله عز وجل، هو كلمة الله وروحه ألقاها إلى العذراء للبتول التي لم يمسها بشر، ولم يفرضها ولد، قال فرفع عوداً من الأرض ثم قال: يا معشر الحبشة والقسيس والرهبان، والله ما يزيدون على الذي يقول فيه ما يسوي هذا: مرحباً بكم وبمن جئتم من عنده، أشهد أنه رسول الله، فإنه الذي نجد في الإنجيل وأنه الرسول الذي بشر به عيسى بن مريم، انزلوا حيث شئتم، والله لولا ما أنا فيه من الملك لأتيته حتى أكون أنا أحمل نعليه، وأوضئه، وأمر بهدية الآخرين فردت إليهما، ثم تعجل عبدالله بن مسعود حتى أدرك بدراً وزعم أن النبي ﷺ استغفر له حين بلغه موته»[1].

والحديث الثاني المطول الذي يتناول القضية بإسهاب ويفصل جزئياتها بعبارات واضحة جلية وبأسلوب عذب شيق متناسق غاية التناسق هو حديث أم سلمة رضي الله عنها، وحتى تعم الفائدة أنقل الحديث كما هو جملة واحدة كما فعلنا في المرة الأولى عندما نقلنا حديث ابن مسعود بطوله، ثم أشرح الحديثين معاً عندما أتناول جزئيات القضية تحت عناوين صغيرة تتناسب مع البحث. يقول الإمام أحمد بن حنبل: «حدثنا يعقوب ،حدثنا أبي عن محمد بن إسحاق، حدثني محمد بن مسلم بن عبيدالله بن شهاب عن أبي بكر بن عبدالرحمن بن الحارث بن هشام المخزومي عن أم سلمة ابنة أبي أمية بن المغيرة زوج النبي ﷺ قالت: لما نزلنا أرض الحبشة جاورنا بها خير جار النجاشي، أمّنا على ديننا، وعبدنا الله لا نؤذي ولا نسمع شيئاً نكرهه، فلما بلغ ذلك قريشاً ائتمروا أن يبعثوا إلى النجاشي فينا

---

(١) رواه الإمام أحمد بن حنبل، الفتح الرباني، ترتيب وتأليف أحمد بن عبدالرحمن البنا، الجزء العشرون، ص ٢٢٤ ـ ٢٢٥، ط. معدومة، دار الشهاب. وأورد الهيثمي هذا الحديث في ٢٤/٦. وقال: رواه الطبراني قال: وفيه خديج بن معاوية وثقه أبو حاتم وقال في بعض حديثه: ضعف وضعفه ابن معين وغيره وبقية رجاله ثقات. وذكره ابن كثير في البداية والنهاية بسنده ولفظه وعزاه للإمام أحمد، وقال: هذا إسناد جيد قوي، وسياق حسن.

رجلين جلدين[1]، وأن يهدوا للنجاشي هدايا، مما يستطرف من متاع مكة، وكان من أعجب ما يأتيه منها إليها الأدم[2]، فجمعوا له أدماً كثيراً ولم ينزلوا من بطارقته بطريقاً إلا أهدوا له هدية ثم بعثوا بذلك مع عبدالله بن أبي ربيعة بن المغيرة المخزومي، وعمرو بن العاص بن وائل السهمي، وأمروهما أمرهم، وقالوا لهما ادفعوا إلى كل بطريق هديته قبل أن تكلموا النجاشي فيهم، ثم قدموا للنجاشي هداياه، ثم سلوه أن يسلمهم إليكم قبل أن يكلمهم، قالت: فخرجا فقدما على النجاشي، ونحن عنده بخير دار، وعند خير جار، لم يبق من بطارقته بطريق إلا دفعا إليه هديته قبل أن يكلما النجاشي، ثم قالا لكل بطريق منهم إنه قد صبا[3] إلى بلد الملك منا غلمان سفهاء وفارقوا دين قومهم، ولم يدخلوا في دينكم، وجاءوا بدين مبتدع لا نعرفه نحن ولا أنتم، وقد بعثنا إلى الملك فيهم أشراف قومهم ليردهم إليهم، فإذا كلمنا الملك فيهم فتشيروا عليه بأن يسلمهم إلينا، ولا يكلمهم، فإن قومهم أعلى بهم عيناً، وأعلم بما عابا عليهم، فقالوا لهما: نعم، ثم إنهما قربا هداياهم إلى النجاشي، فقبلها منهما، ثم كلماه فقالا له: أيها الملك: إنه قد صبا إلى بلدك منا غلمان سفهاء فارقوا دين قومهم، ولم يدخلوا في دينك، وجاءوا بدين مبتدع لا نعرفه نحن ولا أنت، وقد بعثنا إليك فيهم أشراف قومهم حتى آباؤهم وأعمامهم وعشائرهم لتردهم إليهم فهم أعلى بهم عيناً، وأعلم بما عابوا عليهم وعاتبوهم فيه، قالت: ولم يكن شيء أبغض إلى عبدالله بن أبي ربيعة وعمرو بن العاص من أن يسمع النجاشي كلامهم، فقالت بطارقته حوله: صدقوا أيها الملك، قومهم أعلى بهم عيناً، وأعلم بما عابوا عليهم، فأسلمهم إليهما فليرداهم إلى بلادهم وقومهم.

---

(١) جلدين: بفتح الجيم وسكون اللام أي قويين في نفسهما وجسدهما.

(٢) الأدم: بضم الهمزة وهو الأشهر وبفتحها جمع أديم وهو الجلد المدبوغ، أنظر القاموس المحيط ٤/٧٤.

(٣) صبا: مال، ويجوز همزها «صبأ» أي خرج من دين إلى دين. وكانت العرب تسمي النبي ﷺ الصابىء لأنه خرج من دين قريش إلى دين الإسلام.

قالت: فغضب النجاشي، ثم قال: لا ها الله[1] أيم الله إذاً لا أسلمهم إليهما ولا أكاد[2] قوماً جاوروني، ونزلوا بلادي، واختاروني على من سواي حتى ادعوهم فأسألهم ما يقول هذا في أمرهم، فإن كانوا كما يقولون أسلمتهم إليهما ورددتهم إلى قومهم، وإن كانوا على غير ذلك منعتهم منهما وأحسنت جوارهم ما جاوروني.

قالت: ثم أرسل إلى أصحاب رسول الله ﷺ فدعاهم فلما جاءهم رسوله اجتمعوا: ثم قال بعضهم لبعض: ما تقولون للرجل إذا جئتموه؟ قالوا: نقول: والله ما علمنا وما أمرنا به ﷺ، كائن في ذلك ما هو كائن، فلما جاءوه وقد دعا النجاشي أساقفته فنشروا مصاحفهم حوله سألهم، فقال: ما هذا الدين الذي فارقتم فيه قومكم، ولم تدخلوا في ديني ولا في دين أحد من هذه الأمم؟ قالت: فكان الذي كلمه جعفر بن أبي طالب فقال له: أيها الملك كنا قوماً أهل جاهلية نعبد الأصنام ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش ونقطع الأرحام ونسيء الجوار، يأكل القوي منا الضعيف، فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولاً منا نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده ونخلع ما كنا نحن نعبد وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث وأداء الأمانة وصلة الرحم، وحسن الجوار والكف عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش وقول الزور وأكل مال اليتيم وقذف المحصنة، وأمرنا أن نعبد الله وحده لا نشرك به شيئاً، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام.

قالت: فعدد عليه أمور الإسلام: فصدقناه وآمنا به واتبعناه على ما جاء به وعبدنا الله وحده فلم نشرك به شيئاً، وحرمنا ما حرم علينا وأحللنا ما أحل لنا فعدا علينا قومنا وفتنونا عن ديننا ليردونا إلى عبادة الأوثان من عبادة الله،

---

(١) لاها الله: كأنه يقسم بخالق الخلق، وورد في القاموس المحيط أن سيبويه جوز أن يكون اشتقاق لفظ الجلالة منها ومعناها علا وارتفع.

(٢) ولا أكاد: بضم الهمزة فعل مبني للمجهول أي ولا يقدر أحد أن يكيدني بسبب منعهم والمعنى أنه لا ينخدع أبداً مهما تكن العواقب ولا يخشى أن يلقي كيداً.

وأن نستحل ما كنا نستحل من الخبائث، فلما قهرونا وظلمونا وشقوا علينا وحالوا بيننا وبين ديننا خرجنا إلى بلدك واخترناك على من سواك ورغبنا في جوارك ورجونا أن لا نظلم عندك أيها الملك.

قالت: فقال له النجاشي: هل معك مما جاء به عن الله من شيء؟ قالت: فقال له جعفر: نعم، فقال له النجاشي: فاقرأه عليّ، فقرأه عليه صدراً من كهيعص، قالت: فبكى والله النجاشي حتى أخضل[1] لحيته وبكت أساقفته حتى أخضلوا مصاحفهم حين سمعوا ما تلاه عليهم، ثم قال النجاشي: إن هذا والله والذي جاء به موسى ليخرج من مشكاة واحدة انطلقا فوالله لا أسلمهم إليكم أبداً ولا أكاد[2]:

قالت أم سلمة: فلما خرجنا من عنده قال عمرو بن العاص: والله لأنبئنهم[3] غداً عيبهم عندهم، ثم أستأصل به خضراءهم[4].

قالت: فقال له عبدالله بن أبي ربيعة، وكان أتقى الرجلين فينا لا تفعل، فإن لهم أرحاماً وإن كانوا قد خالفونا، قال: والله لأخبرنه أنهم يزعمون أن عيسى بن مريم عبد.

قالت: ثم غدا عليه الغد، فقال: أيها الملك إنهم يقولون في عيسى بن مريم قولاً عظيماً، فأرسل إليهم فأسألهم عما يقولون فيه.

قالت: فأرسل إليهم ليسألهم عنه، قالت: ولم ينزل بنا مثله، فاجتمع القوم فقال بعضهم لبعض: ماذا تقولون في عيسى بن مريم إذا سألكم عنه؟ قالوا: نقول: والله فيه ما قال الله، وجاء به نبينا ﷺ كائن في ذلك ما هو كائن، فلما دخلوا عليه قال لهم: ما تقولون في عيسى بن مريم؟ قال له جعفر بن أبي طالب: «نقول فيه الذي جاء به نبينا ﷺ، هو عبدالله ورسوله

---

(١) أخضل: أي بللها الدموع.

(٢) ورد في سيرة ابن هشام «لا أسلمهم إليكما ولا يكادون».

(٣) في سيرة ابن هشام «لأنبئه غداً عنهم بما أستأصل به خضراءهم».

(٤) خضراءهم أي دهماءهم وسوادهم.

وروحه وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول، قالت: فضرب النجاشي بيده إلى الأرض، فأخذ منها عوداً، ثم قال: ما عدا عيسى بن مريم ما قلت هذا العود.

فتناخرت[1] بطارقته حوله حين قال ما قال، فقال: وإن نخرتم والله، اذهبوا فأنتم سئوم[2] بأرضي؛ والسئوم الآمنون ـ من سبكم غرم ثم من سبكم غرم، فما أحب أن لي دبراً[3] ذهباً وأني آذيت رجلاً منكم ـ والدبر بلسان الحبشة الجبل ـ ردوا عليهما هداياهما، فلا حاجة لنا بها.

فوالله ما أخذ الله مني الرشوة حين رد على ملكي فأخذ الرشوة فيه، وما أطاع الناس فيّ فأطيعهم فيه.

قالت: فخرجا من عنده مقبوحين مردوداً عليهما ما جاءا به، وأقمنا عنده بخير دار مع خير جار.

قالت: فوالله إنا على ذلك إذ نزل به يعني من ينازعه في ملكه، قالت: فوالله ما علمنا حزناً قط كان أشد من حزن حزناه عند ذلك تخوفاً أن يظهر ذلك على النجاشي فيأتي رجل لا يعرف من حقنا ما كان النجاشي يعرف منه، قالت: وسار النجاشي وبينهما عرض النيل، قالت: فقال أصحاب رسول الله ﷺ، من رجل يخرج حتى يحضر وقعة القوم يأتينا بالخبر؟

قالت: فقال الزبير بن العوام أنا، قالت: وكان من أحدث القوم سناً، قالت: فنفخوا له قربة فجعلها في صدره، ثم سبح عليها حتى خرج إلى

---

(١) فتناخرت: أي تكلمت وكأنه مع غضب ونفور وأصله من النخر وهو صوت الأنف الذي يخرج من الخياشيم.

(٢) ورد في سيرة ابن هشام: «شئوم» بدل مسئوم، يقول السهيلي في الروض الآنف يحتمل أن تكون لفظة حبشية غير مشتقة أو تكون مشتقة من شمت السيف أو أغمدته لأن الأمن مغمد عنه السيف. روض الآنف، الجزء الثاني، ص ٩٢.

(٣) الدبر: بفتح الدال المهملة وسكون الباء الموحدة الجبل بلسان الحبشة كما فسره الأودي.

ناحية النيل التي بها ملتقى القوم، ثم انطلق حتى حضرهم، قالت: فدعونا الله للنجاشي بالظهور على عدوه، والتمكين له في بلاده.

واستوثق[1] عليه أمر الحبشة، فكنا عنده في خير منزل حتى قدمنا على رسول الله ﷺ، وهو بمكة»[2].

كما رأينا في الصفحات السابقة أن الحديثين ـ حديث عبدالله بن مسعود، وحديث أم المؤمنين أم سلمة رضي الله عنهما ـ يرويان لنا قصة الهجرة المباركة والأحداث الجسيمة التي تخللت عبرها، والصراع الرهيب الذي دار بين الإيمان والكفر، وبين المهاجرين وبين وفد المشركين في ربوع الحبشة، وتروي لنا الأحاديث وقائع المناظرة الكبرى بين الجانبين، وكيف أن المشركين قد أعدوا للأمر عدته، كما أن الحديثين فصّلا موقف الصحابة وأسلوب حوارهم ومواجهة الهجمة الشرسة بأسلوب متعقل رزين.

وكيف انتهت الأحداث وصارت نتائجها داخل الحبشة، وخارجها وحديث أم سلمة أطول من الحديث الآخر وأقوى سنداً مع أن حديث ابن مسعود مقبول من حيث المتن والسند ويتقوى أكثر فأكثر بالحديث الثاني، لأنهما يرويان قصة واحدة، وكل واحد من الصحابيين كان شاهد عيان، يروي

---

(١) أي اجتمعوا على طاعته واستقر الملك فيه.

(٢) رواه الإمام أحمد بن حنبل في مسندة الجزء العشرون من كتاب الفتح الرباني، ترتيب مسند الإمام أحمد بن حنبل الشيباني، تأليف أحمد بن عبدالرحمن البنا، الجزء العشرون، ص ٢٢٦ ـ ٢٢٩.
الحديث صحيح. رواه ابن هشام في سيرته عن ابن إسحاق، وأورده الهيثمي ٦/٢٤ ـ ٢٧. وقال: رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح غير ابن إسحاق وقد صرح بالسماع.
وفي سيرة ابن هشام تكملة للحديث بالسند نفسه، قالت: فوالله إنا لعلى ذلك متوقعون لما هو كائن إذ طلع الزبير وهو يسعى، فلمع بثوبه وهو يقول: ألا أبشروا فقد ظفر النجاشي وأهلك الله عدوه، ومكن له في بلاده، قالت: فوالله ما علمتنا فرحنا فرحة قط مثلها قالت: ورجع النجاشي وقد أهلك الله عدوه ومكن في بلاده. راجع سيرة ابن هشام، وسيرة ابن إسحاق.

الأحداث من موقعها وهذا يقوي من الناحية العملية كلا الحديثين، ومن هنا نلاحظ التداخل التام بين الحديثين، إذاً فلسنا بحاجة إلى أن نقف عند كل حديث على حدة إذا أردنا أن نشرح بعض الجزئيات أو نفصل مجملاً أو نضع عناوين جانبية، بل نكتفي بحديث أم سلمة رضي الله عنها لأنه أكمل وأشمل من الحديث الثاني، وإذا رأيت فائدة اختص بها حديث عبدالله بن مسعود فسأنقلها إلى المكان المناسب، ومن الجدير بالذكر أن الأحداث الواردة في حديث أم سلمة رضي الله عنها كثيرة ومتنوعة لذلك أعطى الأولوية للفقرات التي تخدم مباشرة موضوع الصراع بين المشركين والمهاجرين، وربما نؤجل بعض الفقرات لتحل محلها المناسب في المباحث الأخيرة من الكتاب لأنها لا تتناسب مع هذا المبحث الذي نحن بصدده الآن وباختصار أذكر نقاطاً معينة وردت في الحديثين لأهميتها:

الأولى: البواعث من إرسال المشركين وفداً إلى الحبشة؟!!

إن الهجرة إلى الحبشة حدث هام وأمر خطير في أعين المشركين، فهم يرون الإسلام يخرج من قبضتهم الحديدية ويرون المؤمنين يجدون أرضاً غير مكة بل ينعمون بالأمن والاستقرار التامين وكأنّ المشركين أحسوا نوعاً من الخطورة، لأن الحبشة التي أعطت المهاجرين لجوءاً وسمحت لهم أن يقيموا في أرضها ليست دولة ضعيفة في نظر العرب، بل كانوا يعتقدون أنها امبراطورية قوية ولربما تتضرر تلك العلاقات الوثيقة بينهم وبينها، وتكون قاعدة صلبة للدعوة الجديدة، علماً بأن رؤية المشركين وقد انتصر الإسلام في الحبشة وعلمهم أن المهاجرين حققوا أهدافهم تكفي للإثارة لأنهم نصبوا أنفسهم محاربين لهذ الدين وأهله منذ أن ظهرت الرسالة وانتشر الإسلام في جنبات مكة، فتلك الأسباب كافية لكي تصبح بواعث لإرسال وفد قوي إلى نجاشي الحبشة لرد المهاجرين إلى مكة.

الثانية: الأهداف من إرسال الوفد؟!!

إن قريشاً تريد أن تقنع النجاشي برد المهاجرين إلى الجزيرة العربية، إلى شعاب مكة، والفوائد التي تجنيها كثيرة، فأهمها سحق المؤمنين المهاجرين

ليكونوا عبرة لغيرهم، وتلك حرب نفسية يعتقدون أنها تسد الباب أمام العرب الذين يريدون الدخول في الدين الجديد من ناحية، ومن ناحية أخرى فالمشركون يرغبون في كسب مودة النجاشي الرجل القوي في الحبشة حتى لا يهاجر إليه أحد فيما بعد، أو لا يكون على الأقل رمحاً على ظهرهم في المستقبل. وتلك الأهداف واضحة من خلال رحلة الوفد وخلال المناظرة والمحاولات المتكررة لاسترداد المهاجرين.

الثالثة: اختيار عمرو بن العاص لقيادة الوفد:

إن اختيار عمرو بن العاص لقيادة الوفد يدل على حرص المشركين على تنفيذ المؤامرة بقوة لأنه من أقوى شباب مكة عقلاً وحكمة ودهاء، ويكفي وجوده في الوفد لشهرته من حيث قوته الشخصية، وحلمه كما أنه من أفصح العرب لساناً حتى إن عمر بن الخطاب إذا رأى رجلاً غير فصيح في كلامه كان يقول: إن خالق هذا وخالق عمرو بن العاص لواحد، قال محمد بن سلام الجمحي: «كان عمر إذا رأى الرجل يتلجلج في كلامه. قال: خالق هذا وخالق عمرو بن العاص واحد»[1].

الرابعة: جمع المال لتنفيذ المؤامرة:

جمع لتنفيذ المؤامرة مقدار كبير من المال لشراء هدايا ثمينة للنجاشي وبطارقته، وتلك الهدايا كانت رشوة مقنعة اختارها المشركون بعناية فائقة رغبة منهم لتأثير النجاشي، وحتى تصادف هوى البطارقة، وهذا يؤكد أن المشركين ناقشوا مطولاً نوعية الهداية المناسبة لمثل هذه القضية.

وهذا يتطلب دراسة شاملة من حيث التأثير لدى أهل الحبشة ولم يجدوا هدية أفضل من الأدم كما نص الحديث فلقد قالت أم سلمة: «وكان أعجب ما يأتيه منها إليه الأدم» ويستغرب المرء ضخامة الهدية لأن الوفد استطاع تقديم الهدايا لجميع البطارقة في مجلس النجاشي وقد أعدت قريش هدية لكل

---

(١) سير أعلام النبلاء للذهبي ٣/٥٧. وأورده ابن عساكر ١٣/٢٦٤.

واحد منهم، ويفهم من هذا أن لدى المشركين في مكة معلومات واسعة عن الحبشة، ورجال الدين فيها ومساعدي النجاشي حتى تمكنوا من تخصيص هدية لكل واحد من هؤلاء وليس هذا غريباً بسبب كثرة تردد تجارهم على الحبشة، فإن دل هذا على شيء فإنما يدل على العلاقات المتينة بين مكة وبلاد الحبشة في ذلك الزمان.

الخامسة: توزيع الهدايا وترتيب الأولويات:

إن الطريقة التي تم توزيع الهدايا فيها كانت تتناسب مع حجم المكيدة، ويبدوا أن توزيع الهدايا خطط في مكة حيث ينبغي أن يتبع الوفد ما قرره زعماء قريش في اجتماعاتهم حول الموضوع، وكانت الطريقة التي اتبعت هي:

إن تسلم البطارقة هداياهم المقررة قبل أن يعرفوا الهدف الحقيقي لقدوم الوفد، ولا الغاية من إحضار الهدايا الفاخرة، وبعد توزيع الهدايا بين البطارقة أطلع الرجلان على البطارقة تفاصيل رحلتهما والأهداف الكامنة وراءها، ثم طلبا منهم أن يساندوا مواقفهما لدى الملك، وبهذه الأساليب الخطيرة التي تنطوي شيئاً من الخبث ضمن الوفد للتأكيد المطلق من البطارقة لموقفهما في مجلس النجاشي، والهدف الأساسي من هذا ألا يتيح الملك أي فرصة للمهاجرين، وتبعاً لتلك الرغبة تتجه الخطة إلى استصدار قرار ملكي لرد المهاجرين إلى بلادهم قبل أن تنكشف الحقائق المذهلة للملك نفسه، وهي طريقة ماكرة دبرت في مكة، وبهذا أصبح النجاشي آخر من يأخذ الهدية، وآخر من يعلم أمر الهدايا كلها، وهذا الأسلوب يشبه إلى حد كبير ببعض الأساليب الملتوية التي يستخدم في العصر الحديث لاختطاف الأبرياء أو دس المكائد والمؤامرات لشخصيات بريئة، فلولا عناية الله ثم لولا عدل الملك ونباهته وقوته لما فشلت الخطة لأنها كانت محكمة الحلقات، ولأن عمرو بن العاص والوفد الذي معه عندما أبدوا رأيهم للملك وطلبوا منه أن يرد المهاجرين إلى بلادهم وأهلهم وجدوا تأييداً كاملاً من البطارقة وهم أعوانه ومساعدوه في مجلسه، بل هم مستشاروه في مثل تلك الظروف بل أنهم طلبوا من النجاشي تسليم هؤلاء الغلمان الذين فروا من آبائهم وأجدادهم إلى بلادهم، ورددوا ما لقن لهم الوفد قائلين: أيها الملك إن قومهم أعلى بهم عيناً، وأعلم بما عابوا

عليهم فأسلمهم إليهما ليرداهم إلى بلادهم وقومهم». إن اللحظات التي فصلت بين الجملة السابقة الصادرة من البطارقة تأييداً لموقف الوفد وبين جواب النجاشي كانت حرجة وحاسمة.

إن التأييد المطلق والكامل الذي أبداه أعوان النجاشي جعل عمرو ومن معه قد اقتربا من تحقيق الحلم الذي كان يراودهم، ولم تبق أمامهم إلا خطوة واحدة من النجاشي إذا قدر تأييد النجاشي موقف البطارقة ثم إصدار القرار النهائي، وعندها تحقق للمشركين ما أرادوا، وبالتالي يحتفلون بنصر مبين ضد المؤمنين.

لقد تابع النجاشي المؤامرة الكبيرة، والتواطىء الغريب بين الوفد وبين البطارقة وهذا التوافق تم سراً بدون علم النجاشي، ولكن المسرحية التي تنفذ من خلالها المؤامرة لم تنطل عليه فصولها، وانكشف الأمر له، ولم ينتظر الجلساء جواب الملك طويلاً ولم يقلب الأمر على وجوهه أطول من الفترة التي تابع المسرحية من أطرافها فجاء جوابه قوياً بما فيه الكفاية بمثابة صاعقة مدوية أسكتت الجميع بل أصابت جميع الحاضرين بحيرة ودهشة ولأن الذين حبكوا المؤامرة وأحكموا حلقاتها، ونسجوا خيوطها من البداية إلى النهاية لم يكونوا يتوقعون ظهور نتيجة كهذه: بل كل التوقعات كانت تذهب عكس ذلك تماماً، فجاء جوابه هكذا: «لا ها الله وأيم الله إذاً لا أسلمهم إليهما، ولا أكاد، قوماً جاوروني ونزلوا بلادي، واختاروني على من سواي، حتى ادعوهم فأسألهم ما يقول هذان في أمرهم، فإن كانوا كما يقولون، أسلمتهم إليهم ورددتهم إلى قومهم وإن كانوا على غير ذلك منعتهم منهما، وأحسنت جوارهم ما جاوروني».

إنها كلمات قليلة ولكنها أحبطت المؤامرة، ونسفت جذورها نسفاً عنيفاً، لا بد من أن يجتمع الخصوم في مجلسه ليسمع حجج كل فريق بوجود خصمه، وتلك إجراءات سليمة وعادلة تمكن النجاشي من اتخاذ الخطوة التالية وعلى ضوئها يصدر القرار الذي يراه مناسباً، وكل هذا يبرز شخصية النجاشي الفريدة ومما يتميز به من عدل وحكمة لا تضاهى.

السادسة: ولماذا تحاشى الوفد من المواجهة؟:

إنهم يدركون ضعفهم لأنهم لا يحملون رسالة ولا يناضلون لأي هدف سام، وبالتالي فإن أحسن وسيلة لأهل الباطل أن يصطادوا في الماء العكر، أما أن يقبلوا الحوار الهادف ليبقى الأصلح في الساحة فأمر غير مقبول لأهل الظلم، لذلك ترى الجاهلية في كل عصر تلجؤ إلى العنف والبطش والاستبداد، بينما الإسلام يشجع الحوار والجدال بالتي هي أحسن والتسامح مع الرأي المخالف ﴿وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾.

السابعة: المناظرة الكبرى بين المهاجرين ووفد المشركين:

قبل أن يحضر الصحابة مجلس النجاشي لمواجهة خصومهم أجروا مشاورات مهمة حول ما يجب فعله في الظرف الراهن فعبرت عن هذا الموقف أم سلمة رضي الله عنها في حديثها الطويل فقالت: «لما جاءهم رسول النجاشي، اجتمعوا، ثم قال بعضهم لبعض: ما تقولون للرجل إذا جئتموه؟ قالوا: نقول والله ما علمنا وما أمرنا به نبينا ﷺ كائن في ذلك ما هو كائن».

يتجلى في السياق مبدأ الشورى بين أصحاب رسول الله ﷺ إنها مبدأ أصيل في الإسلام لا يستغني عنه عاقل، لأن التشاور في الأمور الطارئة والقضايا المصيرية أمر ضروري إذا أريد للأمة أن تحيى حياة كريمة أو أن تبقى في الحياة بقاء له معنى، أنظر إلى الصحابة رضي الله عنهم كيف عقدوا اجتماعاً طارئاً وكيف تشاوروا في هذا الأمر، حتى اتخذوا القرار المناسب على ضوء الإسلام إذ يقول رب العباد ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾[1]. يجب أن تكون الشورى منهاجاً عملياً لأفراد الأمة وشعوبها لأنها الطريق الوحيد لإنقاذ الأمة من وقوعها تحت أيادي المستبدين الذين لا يحترمون رأي الآخرين فالأمة تشقى شقاء لا سعادة بعده إذا اعتمدت على الارتجالية المبنية على رأي الفرد.

أما ما ورد فيه نص قاطع الدلالة فيجب أن تلتزم الأمة حياله وهذا ما فعله الصحابة في ذلك الموقف الصعب.

---

(١) سورة الشورى: الآية ٣٨.

إن المناظرة الكبرى قد بدأت بسؤال النجاشي الموجه إلى المؤمنين: «ما هذا الدين الذي فارقتم فيه قومكم، ولم تدخلوا في ديني ولا دين أحد من هذه الأديان؟ واكتفى النجاشي بهذا السؤال في المرحلة الأولى من المناظرة والحوار الساخن لأنه المفتاح، أو محور الصراع بين المؤمنين والمشركين، إذاً هو يعبر عن حقيقة القضية.

الثامنة: جعفر بن أبي طالب ومنهجه في المناظرة:

فرغم أن النجاشي وجه إليهم سؤالاً عاماً إلا أن جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه، أدرك الهدف من وراء السؤال، كيف لا يدرك ذلك وأمامه عمرو بن العاص الذي ما زال على شركه وعداوته حتى ذلك الوقت ومعه وفد جاء لمهمة ما.

ومن هنا لم تتشعب إجابته، ولم يكلف نفسه عناء البحث عن سبب عدم دخولهم في النصرانية أو في أي ملة أخرى في الأرض، ويبدو أن هذا كان إغفالاً مقصوداً من قبل جعفر بن أبي طالب، لأن أمامه فرصة طيبة تتطلب تركيزاً قوياً على جوهر القضية ولذلك لم يستخدم المقدمات الطويلة والتمهيد، بل دخل الموضوع بدون إضاعة وقت محسوب عليه. والذي يظهر من كلامه أن القضية كانت مرتبة في ذهنه ترتيباً دقيقاً جعله يقسم الخطبة إلى عناصر صغيرة كل عنصر وقع موقعه فعلاً:

أ ـ في هذا المقطع الذي بدأ بقوله: «أيها الملك» عدد فيه عيوب الجاهلية ومفاسدها، إنه كشف للنجاشي ومن كان معه في مجلسه مساوىء الجاهلية وضعفها الكامن في بنيتها، وهذا رد غير مباشر لسؤال الملك، وكأنه يقول لم نفارق ديناً من الأديان. ولكننا خرجنا من جاهلية جهلاء تتصف بكل الصفات الخبيثة والقبيحة من حيث المظالم الاجتماعية وانتشار الفواحش وعدم التعاون بين الناس، إن وضع تلك الصورة الذميمة أمام الملك بوجود عمرو بن العاص والوفد الذي معه كان ضربة موجعة ومؤلمة على رؤوس الوفد. وهذا مبدأ التخلية قبل التحلية.

ب ــ أما الفقرة الثانية من المناظرة كانت وصفاً موجزاً عن الإسلام الذي بعث الله نبيه لأجله، وكانت مناسبة سعيدة لشرح الإسلام ابتداء من التوحيد والعبادات والأخلاقيات والقضايا الاجتماعية كما أوضح المنهيات في الإسلام وكل ذلك كانت بلا تطويل ممل، ولم يدخل في التفاصيل الدقيقة التي لا يستوعبها غير المسلمين.

بل عرض التوحيد، وتحدث عن أركان الإسلام جملة، وطائفة من الأمور الواجبة شرعاً، وأخرى من الأمور المنهية شرعاً. ولقد كرر جعفر ذكر التوحيد في حديث أم سلمة رضي الله عنها في خطبته لأهمية التوحيد القصوى ولأنه المفتاح لمن يريد دخول هذا الدين وأول ركن من أركان الإسلام، وتلك دعوة صريحة إلى النصارى، لأن كثيراً من هؤلاء كانوا يشركون مع الله آلهة أخرى مثل ألوهية عيسى عليه السلام.

وفي بعض الجمل من المقطع نفسه ذكر إيمانهم بالرسول ﷺ وإتباع ما جاء به، وختم كلامه في المقطع بعبادة الله وحده لا شريك له، وعدم جواز الشرك مع الله، وإن التحليل والتحريم من الله جل شأنه، وليس هذا لأحد من خلقه مهما علا شأنه، ولقد تضمنت تلك الجمل أشياء مفيدة جداً وبين وأوضح أمور الدين بجلاء ووضوح.

ولقد تابع جعفر رضي الله عنه خطابه وتعرض لأمر في غاية الأهمية ما كان لمثله أن ينساه أو يتساهل به وهو سبب مجيئهم إلى الحبشة.

التاسعة: سبب هجرتهم إلى الحبشة!!!

حول السبب الأساسي لمجيئهم إلى أرض الحبشة قال جعفر رضي الله عنه: «فعدا علينا قومنا، فعذبونا وفتنونا عن ديننا ليردونا إلى عبادة الأوثان من عبادة الله، وأن نستحلّ ما كنا نستحلّ من الخبائث، فلما قهرونا وظلمونا وشقوا علينا وحالوا بيننا وبين ديننا خرجنا إلى بلدك، واخترناك على من سواك، ورغبنا في جوارك، ورجونا أن لا نظلم عندك أيها الملك». وفي ختام الجولة الأولى التي أعطيت إياه ركز على الظلم والاعتداء ومحاولة فتنة الناس عن دينهم، وإجبارهم على عبادة الأصنام وإكراههم على ارتكاب الخبائث

والمحرمات والفواحش وكلها من أمور الجاهلية، وذكر أيضاً أن عدم وجود حرية الاعتقاد والعبادة في مكة هو السبب الأساسي الذي جئنا إليكم واخترناكم، لأنكم ملك عادل فنرجوا أن نستظل بظل عدلكم أيها الملك، ولقد أحسن جعفر في العرض الموجز الذي بدأ بكلمة «أيها الملك» وأنهى كلامه بكلمة «أيها الملك» وهي كلمة تبجيل واحترام، وهي الوحيدة في الفقرات كلها وتلك جمل مفيدة أظهر فيها جعفر براعة فائقة وذكاءً حاداً استطاع أن يؤدي واجب الداعية بحكمة ولباقة.

العاشرة: تحليل لخطاب جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه:

أ ــ إنه لم يضيع وقتاً في المقدمات الطويلة، بل وظف كل لحظة وكل طاقته وفصاحته، وذكائه لشرح الإسلام وبيان أركانه، وأحكامه، وأخلاقه، وذكر الأوامر والنواهي أكثر من مرة، وأوضح حقيقة الإسلام إجمالاً، وناقش قضية التحليل والتحريم وبين موقف الإسلام منها وبأنها مسألة توقيفية وحاول إبراز محاسن هذا الدين باستعراض الفضائل فيه.

وبجانب هذا عدد مساوىء الجاهلية وعري خبائثها، وكشف وجهها الكالح، ولقد حاول في خطابه أن يقوض أركان الجاهلية ووجه السهام القاتلة إلى الأوثان والأصنام، إنه هدم الجاهلية في هذا المجلس وبنى الإسلام فيه، إنه أوجز وأبلغ وبلغ ما أراد تبليغه وبيانه «وخير الكلام ما قل ودل».

ب ــ إن الخطاب بطوله وبكثرة الفقرات التي تناولها والقضايا التي عرضها على الحاضرين خلى من المجاملات الزائدة والمدائح، ورغم أنه يود كسب عطف الملك في الجولة الأولى، والانتصار في المعركة الدائرة بين الحق والباطل إلا أنه لم يجنح به الخطاب إلى المجاملات ولم يستخدم الأساليب الرخيصة التي يستخدمها الانتهازيون في مثل تلك الظروف القاسية والأجواء المتلبدة بالغيوم ومن ناحية أخرى التزم على جادة الحق حيث لم يقدح الجاهلية بما ليس فيها، بل وقف عند الحقائق المجردة، مما جعل عمرو والوفد يسكتون، فلم يجدوا جواباً مناسباً للرد عليه وعلى مقالته والحقائق التي عرضها، بل نكلوا نكولاً غريباً، لأن ما ذكره جعفر أمر بديهي للجميع فلا

يخفى على أحد له صلة مع الجزيرة العربية، فماذا يقولون لو حاولوا الرد عليه، إنهم يدافعون عن باطل، والباطل لجلج بطبيعته وطبيعة حامله في كل العصور، فلم يكن جعفر يحتاج إلى تملق وتزلف للنجاشي، إن ما عنده حق أبلج فلا التواء فيه ولا تزوير ولا افتراء كما فعل الوفد عند حديثهم عن المهاجرين. وهذا الفرق بين المؤمن والكافر، المؤمن يصدق لأنه يدافع عن الحق دائماً، والكافر يتكيف مع الظروف ويتلون مثل الحرباء حسب الموسم والبيئة والمصلحة العاجلة.

الحادية عشرة: هل معك مما جاء به عن الله من شيء!!

هذه فرصة أخرى لجعفر رضي الله عنه لشرح الإسلام وهو موقف دعوي لا ينبغي أن يمر بدون الاستفادة منه واستغلال فرصته الجميلة فلم يتردد أن قال: نعم. قال له النجاشي فأقرأه عليّ، فقرأ عليه صدراً من كهيعص: «فقالت، فبكى والله النجاشي... الحديث». إن اختيار جعفر سورة مريم اختيار حكيم وقع موقعه، ويدل على فقه الدعوة لدى جعفر، ونباهته، فإنه اختار للنجاشي وأساقفته أكثر الآيات تأثيراً للنصارى، وأقواها على الإقناع، إنه أراد أن يوقظ عاطفة الحب لدى هؤلاء فكأنه وجه إليهم موعظة في هذا المجلس، ومن الناحية الثانية عزم على أن يفهمه أن الدين الجديد ليس غريباً لدى النصارى، بل النصرانية الصحيحة والدين الجديد شيء واحد وبأن عيسى ومحمد رسولان كريمان وأخوان في الرسالة الإلهية، أرسلهما الله رحمة للعالمين وهداية للبشرية.

إن الصحابي الجليل أثار موضوعاً مهماً، وذا شفافية خاصة لدى النصارى لأن السورة تتحدث عن قصة نبي الله عيسى عليه السلام وأمه الكريمة العذراء ولكي ندرك الأثر الذي تركته الآيات في نفوس الحبشة وعلى رأسهم النجاشي نقرأ معاً الآيات التي يشير إليها الحديث. يقول الله عز شأنه:

﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّىٓ

أَعُوذُ بِالرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ
غُلَامًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا
﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً
مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾ ۞ فَحَمَلَتْهُ فَانتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا
﴿٢٢﴾ فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ
نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾ فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾
وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾ فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي
عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ
الْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴿٢٦﴾ فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ ۖ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا
فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾
فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ ۖ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ
آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي
بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا
﴿٣٢﴾ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾ ذَٰلِكَ
عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ۚ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن
وَلَدٍ ۖ سُبْحَانَهُ ۚ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾[1].

إن الحديث عن المعجزات التي رافقت بمولد عيسى وحمله وكلامه في المهد نبياً رسولاً في مجلس يرأسها نصراني في دولة نصرانية هو بمثابة ذكر المحاسن والمفاخر لديهم، وهو اعتراف بفضائل عيسى وما اختص به من بين

(١) سورة مريم: الآيات ١٦ ـ ٣٥.

سائر الأنبياء وهذا اختيار موفق جداً لأن النصارى يسعدون بسماع تلك المعجزات من غيرهم، ولقد تأثروا تأثراً بالغاً بسبب ما سمعوا من القرآن الكريم، إنه منظر مدهش حقاً ومثير إلى حد بعيد، أحدث انقلاباً بكل ما تعني هذه الكلمة، وقلب الموقف رأساً على عقب، وتغيرت نظرة الحاضرين في المجلس الملكي، أي قوة تلك التي أبكت الملك الحبشي، وأبكت أساقفته حتى اخضلت لحاهم وسالت الدموع على المصاحف الموضوعة أمام القساوسة والبطارقة بغزارة نادرة[1].

إنها قوة الحق الغالب، وقوة الإيمان التي يتميز بها أصحاب المبادىء الفاضلة، إنها قوة الكلمة الصادقة الصادرة من قلب مملوء بحرارة الإيمان المشحون بصدق العاطفة، إنها قوة القرآن الكريم الذي هو المعجزة الخالدة، المعجزة التي أعيت سبل المشركين في مكة بل تحدت البشرية قاطبة إلى يوم الدين، المعجزة التي أنطقت جبابرة المشركين العتاد فلقد قال أحدهم وهو الوليد بن المغيرة الذي اشتهر بعداوته وكيده لرسول الله ﷺ عندما سمع القرآن الكريم: «والله إن لقوله لحلاوة وإن أصله لعذق، وإن فرعه لجناة»[1] إنه منظر أخّاذ اتجه جمهور الحاضرين على أثره إلى التصديق والإعجاب فلم يجدوا وسيلة أبلغ في التعبير من الدموع المدرار، واختلاط الأصوات، أصوات الباكين حتى اختفت مظاهر الاختلاف في مجلس النجاشي وأساقفته، ولم يبق غريب في هذا المجلس، في تلك اللحظة بالذات إلا عمرو بن العاص ومن معه الذين جاءوا لتنفيذ المؤامرة. ولكنهم ذابوا واختفوا بسبب أشعة الحق القوية.

إنها كانت ضربة موجعة انهار بسببها بنيان المؤامرة والكيد على رؤوس مشيديها، وهذا انتصار باهر للحق في جولة من جولاته، وما أحلى عندما

---

(١) سيرة ابن هشام، الجزء الأول، ص ٣٠١.
قول الوليد أن أصله لعذق، وإن فرعه لجناة، استعارة من النخلة التي ثبت أصلها، وقوي وطاب فرعها إذا جنى. والعذق: بفتح العين المهملة هي النخلة. راجع سيرة ابن هشام، والروض الأنف عند الحديث عن الوليد بن مغيرة وكيده للرسول ﷺ.

ينتصر الإسلام بقوة منطقه أو صلابة أهله، وشدة تمسك المؤمنين بدينهم لا يخافون في الله لومة لائم، وبعد نهاية المشهد المثير وبعد أن هدأت النفوس وسكنت الأصوات نطق النجاشي بالحق، وانطلقت الكلمات وتدافعت الجمل في لسانه فقال: «إن هذا والله والذي جاء به موسى ليخرج من مشكاة واحدة» وبهذه الكلمات القليلة حسم الأمر، ووضع حداً لكل التوقعات وانجلى له الحق واتخذ القرار الحاسم بعدم تنفيذ رغبة المعتدين، وألا يسلم المهاجرين إلى وفد المشركين، ومن هنا حطم كبرياء المشركين وباءت محاولاتهم بالفشل فقال: «انطلقا فوالله لا أسلمهم إليكم أبداً ولا أكاد».

موقف نادر الحدوث، وانقياد للحق مهما تكن النتائج وشفافية روح النجاشي، وتنفيذ ما يراه بأنه هو الصواب بدون أن يكترث لما تسفر عنه الأيام.

الثانية عشرة: الفصل الأخير من المناظرة:

يبدو أن الوفد لم يستوعب الدرس الذي لقن له والسهم المسدد نحوه، ولعل ذلك لهول الصدمة أو بسبب الحقد الدفين الذي يكنه المشركون للإسلام وأهله، وأياً كان السبب حاول عمرو بن العاص أن يستخدم آخر سهم في جعبته طمعاً في إحداث تغيير جذري في الموقف كله، ليسدد ضربة قاتلة ضد المهاجرين وكأن ما حدث لم يكن كافياً لاعتراف الهزيمة أمام أصحاب الحق والعدل.

إن الفصل الأخير من المناظرة كما ترويها لنا أم سلمة يتعلق بعيسى عليه السلام، لأن عمرو بن العاص يعرف موقف الدين الإسلامي من تأليه البشر والفرق بين المسلمين الذين يعتقدون ببشرية عيسى عليه السلام وبين النصارى الذين يعبدونه ويرفعونه إلى درجة الألوهية يقول عمرو: «أيها الملك إنهم يقولون في عيسى بن مريم قولاً عظيماً، فأرسل إليهم فاسألهم عما يقولون فيه».

أظهرت الجولة الأخيرة من المناظرة عدة أمور هامة:

أ ـ الثبات الذي لم يعرف التزعزع عند أصحاب رسول الله ﷺ وإظهار حقيقة الإسلام أياً كانت المخاطر المحتملة حدوثها. فأي تساهل في إبراز حقيقة الإسلام أو تلاعب بالألفاظ، أو محاولة إخفاء بعض الأحكام التي تدعو الحاجة إلى توضيحها، وتبيينها لأجل إرضاء البشر أو تحقيق أطماع معينة ستكون نتائجه وخيمة، فالصحابة رضوان الله عليهم أجمعين أوضحوا الحق الواضح للنجاشي في عيسى بن مريم: «هو عبد الله ورسوله وروحه، وكلمته ألقها إلى مريم العذراء البتول» تلك حقيقة قررها الإسلام في القرآن وفي السنة فيجب أن يعرفها كل البشر وعلى رأسهم النصارى الذين يؤلهونه ويدّعون أنه ابن الله ﴿وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾[1]. والاحتمال في أن يغضب ذكر تلك الصفات لنبي الله عيسى عليه السلام النجاشي وأعيان الحبشة من القساوسة وغيرهم كان كبيراً، ويشكل هذا تهديداً خطيراً لجميع المهاجرين، ومع ذلك فهم مضطرون لإحقاق الحق وإبطال الباطل في مثل هذه الظروف وإن تعاظمت المخاطر أمامهم، لأن تأخير البيان عن وقت الحاجة لا يجوز شرعاً كما هو مقرر في الأصول. وتأخير هذا البيان خسارة لا تعوض في كل الأوقات فلعل المرء لا يجد فرصة مناسبة لشرح هذه المسألة أو تلك وتوضيح الموقف الحقيقي للإسلام.

إن مصير العباد بيد الله سبحانه وتعالى، وإن القلوب بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء ﴿لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ﴾[2].

فاتباع الإسلام أمراً ونهياً، وتحليلاً وتحريماً، قولاً وفعلاً يقرب المؤمنين إلى النصر وإلى رضى الله سبحانه، وهي الغاية العظمى للمؤمنين، والاتباع يحقق للمؤمنين معية الله سبحانه وتعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ

---

(١) سورة التوبة: الآية ٣٠.

(٢) سورة الروم: الآية ٤.

سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾[1].

ب ـ أظهرت الجولة الأخيرة موقف المشركين من الإسلام، وكشفت مدى حقدهم لهذا الدين، وأن القضية كانت قضية حياة أو موت حيث لم يتورعوا من استعمال كل الأساليب القذرة والملتوية لتحقيق غايتهم الهابطة، فموقف عمرو بن العاص يترجم عن نوايا المشركين، وتصميمهم على إخراج المهاجرين من الحبشة وردهم إلى مكة مكرهين ثم تصفيتهم جسدياً، وتلك طبيعة متأصلة في نفوس أعداء الإسلام في كل عصر وآن، فإنهم لا يتوانون عن استخدام أسوأ الوسائل لتحقيق أهدافهم، فالغاية عندهم تبرر الواسطة، ولقد وصف الله سبحانه وتعالى موقف المشركين وأعداء الإسلام بصفة عامة: ﴿ لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ ٱلْمُعْتَدُونَ ﴾[2].

وقال تعالى: ﴿ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾[3].

جـ ـ كشفت الجولة الأخيرة من المناظرة أن طائفة كبيرة من أساقفة الحبشة ورجال الدين هناك كانوا يعتقدون بألوهية عيسى وأنه ابن الله كما أخبرنا الله عز وجل عن هذا الأمر في القرآن الكريم قال تعالى: ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ ۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ

---

(١) سورة العنكبوت: الآية ٦٩.

(٢) سورة التوبة: الآية ١٠.

(٣) سورة التوبة: الآية ٣٢.

لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾[1].

فإشارة بشرية عيسى وعبوديته مسألة حساسة للغاية لدى كثير من النصارى الذين يعبدونه من دون الله كما تشير الآيات القرآنية، ولعل معظم البطارقة من هذا الصنف كما اتضح عند عرض المسألة وسماع رأي النجاشي القائل: «ما عدا عيسى بن مريم ما قلت هذا العود»، «فتناحرت بطارقته حوله حين قال ما قال».

و ــ إن صلابة النجاشي رحمه الله تعالى على الحق وشجاعته الفائقة لا تحتاج إلى دليل ولا برهان، فلقد وقف ضد المؤامرة والمتآمرين بثبات وعزم لا يلين منذ اللحظات الأولى، فلم نلاحظ أي تغيير في موقفه، أو ليونة لإرضاء طرف على حساب الحق، فلقد وضع لنفسه منهجاً في بداية القصة فرأيناه يتثبت فلا يستعجل ولا يتخذ قرارات ارتجالية، واستطاع أن يتابع المناظرة بصبر، وفند كل الحجج التي قدمها الوفد وناقش الأمور بموضوعية وبطريقة علمية، كما أن موقفه من بطارقته في نهاية الجولة الأخيرة كان بمثابة تحد صارخ ضدهم لصالح المؤمنين، ووقف بجانب العدل والإنصاف، ثم أصدر قراراً لصالح العدل وأيد هذا القرار بتأكيدات مهمة تقوى قراره السابق، وفي نهاية المطاف أعطى النجاشي حماية كاملة، وأمنا للمهاجرين، ومنح حرية العيش والعبادة معاً في أرض الحبشة، وأجاز لهم أن ينتقلوا داخل المملكة الحبشية حسب رغبتهم وكيفما شاءوا فقال النجاشي في هذا «اذهبوا فأنتم سئوم بأرضي» أي آمنون.

لم يكتف بذلك لأنه أحس من البطارقة أنهم غير راضين من تصرفاته، وهذا أمر جد خطير ربما يؤدي إلى تعرض هؤلاء المهاجرين إلى بعض المضايقات منهم أو من أفراد البلاد العاديين، فوجه إلى مواطنيه تهديداً قوياً خوفاً من أي شيء يعكر صفو حياتهم فقال رحمه الله تعالى: «من سبكم غرم ثم من سبكم غرم».

---

(١) سورة التوبة: الآيتان ٣٠ ـ ٣١.

هـ ــ ولقد انتهت الجولة الأخيرة بفقرة مهمة جداً لأنها تناولت أمر الهدايا التي كانت مفتاح شر للقضية كلها، فماذا فعل النجاشي بها يا ترى؟ إنه اعتبر تلك الهدايا الفاخرة بأنها رشوة وليست هدايا، لأن الهدف الأساسي منها هو الإفساد والإضرار، لأن الأفعال بمقاصدها «إنما الأعمال بالنيات» ولهذا أصدر أمراً آخر يصحح الوضع، فأمر برد الهدايا كلها سواء كانت هديته أو الهدايا التي أخذها البطارقة حوله فقال: «ردوا عليهما هداياهما فلا حاجة لنا بها، فوالله ما أخذ الله مني الرشوة حين رد على ملكي فآخذ الرشوة فيه، وما أطاع الناس في فأطيعهم فيه» إنه عالج الأمر وقطع الشر من دابره حتى لا يظن الوفد بأن النجاشي بحاجة إلى هداياهم فيعاودوا الكرة مرة أخرى.

وأسدل الستار على القضية برمتها وأحبطت المكيدة بتوفيق من الله عز وجل، فغادر الوفد من مجلس النجاشي وهو يجر أذيال الخيبة والخذلان، واختتمت أم سلمة حديثها الطويل بجملة تفوح منها رائحة النصر، مليئة بالنشوة والسعادة، إنها نهاية سارة لصراع طويل ومرير دار بين المؤمنين المهاجرين وبين المشركين الذين جاءوا للغدر والخيانة، وكرسوا جهودهم لضرب الإسلام، ولكنهم عادوا إلى مكة مقهورين مهزومين.

وقد لقنهم المؤمنون درساً بليغاً لم ينسوه أبداً، وتلك كانت مفاجأة مذهلة في جميع المراحل حتى خابت توقعاتهم وظنونهم فاندهشوا لهول الصدمة العنيفة وبهذا خارت قواهم وانهارت معنوياتهم فتقول أم سلمة: «فخرجا من عنده مقبوحين مردوداً عليهما ما جاءا به، وأقمنا عنده بخير دار مع خير جار». ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾[1].

الدروس المستفادة من المناظرة الكبرى:

١ ــ أهمية الشورى بين المؤمنين.

٢ ــ التوكل على الله سلاح المؤمنين كما هو واضح من المناظرة.

---

(١) سورة الأنفال: الآية ٣٠.

٣ ــ الالتزام بمبادىء الإسلام العامة وعدم التنازل عنها مهما تكن الظروف.

٤ ــ عرض الإسلام على الناس مبسوطاً ميسراً «يسروا ولا تعسروا» وعدم الخوض في التفاصيل عندما يناقش مع غير المسلمين، أو مع من لا يستوعب التفاصيل الفقهية إلا عند الضرورة القصوى.

٥ ــ التركيز الشديد على العقيدة وأركان الإسلام عند دعوة الناس إلى هذا الدين كما فعل جعفر وهي سنة الله في هذا الدين.

٦ ــ ذكر مزايا الإسلام لجذب الناس إلى الإسلام، وما أكثر المزايا لهذا الدين مثل العدل والإنصاف، والمساواة، ورفض الظلم ومساعدة الفقراء والمحتاجين، وصلة الأرحام، وغير ذلك.

٧ ــ المقارنة مفيدة أحياناً كما يقال وبضدها تتبين الأشياء.

٨ ــ يفضل أن يقدم المناظر محاسن الأديان والمذاهب كمدخل للمناظرة حتى لا ينفر عنه الناس في البداية قبل أن يقول ما يريد القول فيه، لأن ذكر مساوىء الأديان والمعتقدات والمذاهب الفكرية أمام اتباعها لا يساعد الداعية على عرض وجهة نظره على الأطراف الأخرى.

تركيبة وفد المشركين:

لقد ذكرت كتب السير بصفة عامة أن المشركين أرسلوا إلى الحبشة وفدين اثنين، فقد أرسلوا وفداً يتكون من عمرو بن العاص وعبدالله بن ربيعة، كما أرسلوا وفداً يتكون من عمرو بن العاص وعمارة بن الوليد مرة أخرى بدون ذكر التفاصيل، والسبب هو ورود اسم عمرو في جميع الأحاديث والآثار المتعلقة بالوفد بينما ورد اسمان مع عمرو بن العاص كما رأينا في الحديثين السابقين مما يوهم وجود وفدين منفصلين.

ولكن عند التتبع لا يجد المرء ما يؤيد ذلك، بل العكس هو الصحيح، فالجزئيات والتفاصيل الدقيقة وعناصر الموضوع وأسلوب الحوار والنتائج المترتبة عليه كل ذلك يدل على أنها قصة واحدة لا تعدد فيها علماً بأن عبدالله بن

مسعود، وأم المؤمنين أم سلمة وهما أشهر من روى لنا هذه القصة قد هاجرا في الهجرة الثانية، وعادا إلى مكة المكرمة بعد سماع نبأ الهجرة إلى المدينة المنورة.

فالواضح أن الوفد كان أكثر من اثنين، فكل راو يروي جانباً من مشاهداته، ومن المحتمل أن عبدالله بن ربيعة وعمارة بن الوليد كانا يتناوبان في مساندة عمرو في الحوار والمناظرة. إذاً فالرواة هنا يبنون آراءهم على ما يعتقدونه حسب ما يظهر إليهم من خلال المشاهد.

وفي الختام لم يحدث ما يشجع قريشاً على معاودة الكرة من جديد خلال ست سنوات في أكثر الاحتمالات كما أن ورود اسمين مختلفين مع عمرو لا يمكن أن يكون دليلاً لنستند إليه وهو لا يتجاوز كونه احتمالاً مع وجود أدلة ثابتة في هذا المجال.

obeikandl.com